

القارئ وبنية النص

أ/ بوساحة فريدة

كلية الآداب واللغات

جامعة قسنطينة.

Résumé :

Cet article a pour objectif la représentation d'un type de lecteurs, la plupart virtuels enracinés dans leurs textes. Ce type de lecteurs se résume comme suit :

- Le lecteur informateur et l'archi-lecteur chez «Mihaïl Riffaterre» son lecteur reçoit les stimulus textuels et sa fonction se limite en la reconnaissance des faits stylistiques ni plus ni moins.

- Celui de « Iser » 1976, un lecteur implicite actualise les textes mais malgré sa participation interprétative il reste lui aussi lié à son texte et traduit les structures textuels en structures mentales.

- Celui de «Em.Eco», un lecteur virtuel ne possède pas seulement des connaissances linguistiques et non linguistiques mais aussi une encyclopédie lectrice qui lui permet une coopération textuelle et l'interprétation du non-dit dans un texte littéraire généralement compliqué et ouvert.

الملخص:

يعالج هذا المقال مرحلة مهمة من مراحل البحث في العلاقة بين النص وقارئه، مرحلة اتسمت بالتشبيث بالبنية النصية وظهور البذور الأولى للانتقال إلى "القارئ" وجعله مركز اهتمام، تمثلت هذه المرحلة في نمط معين من القراءة مثلهم خاصة:

-القارئ المخبر والقارئ الأعلى عند "ميخائيل ريفاتير"، قارئه مجرد "كائن" تنثيره أساليب النص وتكون استجاباته بمثابة أحداث أسلوبية ليس أكثر.

-القارئ الضمني جاء به "أيزر" 1976، مهمته الأساسية ملئ فراغات النص وترجمة البنيات النصية إلى بنيات ذهنية، وهو قارئ لا يمكن مطابقته مع أي قارئ موجود في الواقع.

-القارئ النموذجي عند "إيكو"، وهو قارئ لا يمتلك فقط معارف لغوية وغير لغوية بل موسوعة قرائية تسمح له بتفكيك بنيات النص المعقدة والقيام بنشاط سميولوجي متعدد الأطراف.

تتشارك كل هذه المفاهيم في تأسيس مفهوم قارئ مجرد، مفترض، متضمن في بنية النص تجذبه ويتأصل فيها رغم مشاركته من حين لآخر في العملية التفسيرية عند كل من "أيزر" و"إيكو".

المقدمة .

يحظى "القارئ" حالياً باهتمام كبير داخل الدراسات النقدية -الأدبية والاجتماعية والتعليمية وحتى الفلسفية بشكل عام، نظراً للدور الذي يلعبه في فهم النص وتفسيره وتحويله وتوجيه معناه وجهة معينة دون غيرها، فإليه يعود قرار إحياء النص ونشره وانتشاره وبيعته أو طمسه وقتله وتجميده بين رفوف المكتبات.

لكن من هو هذا "القارئ" الجيد، الكفاء، المتمرس الذي تعود إليه سلطة القرار وتوكل إليه هذه المهمة الصعبة في توجيه مصير النصوص ليست من إنجازها، سهر وتعب الآخرين في تأليفها ؟ يأتي النقاد والسيميولوجيون والأسلوبيون بكثير من المفاهيم لأجل احتواء مضمون هذا القارئ المجرد .

فالقراء كثيرون، مختلفو الكفاءة والتكوين والذوق والثقافة والمجتمع، لذا اختلف الدارسون أنفسهم حول توحيد مفهوم "القارئ"، فهو مرة قارئ تجذبه بنية نصه وما قراءته إلا مجرد ردود أفعال لمثيرات النص عند "ميخائيل ريفاتير"، كما يمكن أن يكون لحظة وقع معينة تتم عند التقاء القارئ بالنص وحدث أثر معين في ذهنه تتركها دلالة النص عند "أيزر"، كما يمكن أن يكون ممثلاً لكفاءات نصية لغوية أسلوبية بلاغية ضمنية يواجه بها غموض النصوص وإلتواءاتها لكن برغم اختلاف هؤلاء الثلاثة فإن قارئهم متجذر ومنغمس في نصه مشكلاً صنفاً واحداً من أصناف القراء، وهو "قارئ" متضمن في بنية نصه المقروء ومتموضع داخله لا يغادره حتى وإن غادره فللحظات يجب عليه نسيانها حسب تعبير "أيزر".

تمهيد

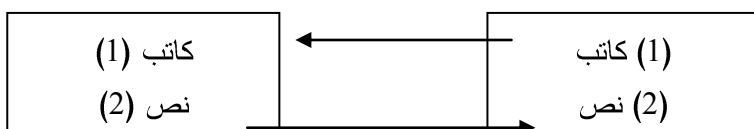
يشكل فعل القراءة أهمية حضارية، اجتماعية، ثقافية في العصر الحالي، فلا تقدم ولا تحضر ولا مواكبة للعصر دون "قراءة"، لذا تبدو عملية انتقال اهتمام النقاد والباحثين والمنظرين الأدبيين والنفسانيين والاجتماعيين إلا الاهتمام بالقراءة ومحاولة تأسيس إبستمولوجيا خاصة نتيجة معرفية حتمية وضرورية.

لقد انتقل البحث في "المرجعية" من الكاتب ومجتمعه وثقافته وعقده النفسية إلى النص وتركيباته الثنائية إلى "مرجعية" القارئ، ذلك القارئ الذي يقرأ النص بثقافته

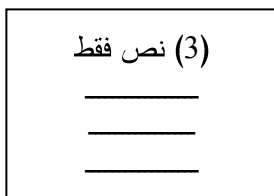
ومجتمعه ومعارفه اللغوية وغير اللغوية وقبل تبني هذه الفكرة مرت الدراسات الأدبية النقدية وغيرها التي اهتمت بالثلاثية الكاتب ← النص ← القارئ عبر المراحل التالية :

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة الانتقال من الكاتب إلي النص تميزت بالبحث في حياة الكاتب من أجل تفسير نصه وتأويله وبقي الكاتب في نصه لمدة طويلة من الزمن درست فيها حياته ومجتمعه ومحيطه الثقافي لأجل تفسير نصه .

- المرحلة الثانية: تميزت بالبحث عن الكاتب في النص، أي الانتقال من النص إلى الكاتب وبرهن على ذلك بوجود علامات لغوية دالة كما هو موضح في الشكل الموالي:



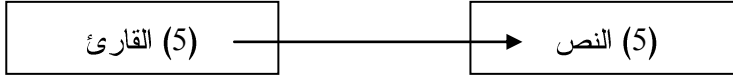
- المرحلة الثالثة: تميزت بعزل النص عزلاً تاماً ، وقيل النص للنص يبدأ من أول كلمة فيه وينتهي عند آخرها، فلا خارج له، هو مجرد نسيج ومادة يمكن تناولها لذاتها بواسطة مناهج موضوعية وصفية.



- المرحلة الرابعة: انتقلت الدراسات إلى القارئ، لكن قارئها بقي متجذراً في نصه ومتضمناً في بنيته.



- المرحلة الأخيرة: هي مرحلة الانتقال من مرجعية النص إلى مرجعية القارئ.



يتناول هذا المقال المرحلة الرابعة فقط وهي المرحلة التي تجاذبت فيها الدراسات بين النص والقارئ، هي مرحلة تأزم الفكر البنيوي وانسداد أفقه، وغم ذلك لم يسطع الباحثون التخلص من البنيوية تخلصا كليا نظرا لسيطرتها مدة طويلة على المعارف المختلفة وخاصة المعارف اللسانية، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ازدهار الفكر البراغماتي-الأمريكي على يد كل من "بيرس" و"موريس" الاهتمام الذي أعطي للمؤول باعتباره أحد مكونات الدليل.

كما يعود الفضل الكبير إلى النظرية التواصلية التي أعطت أهمية كبيرة للمرسل إليه الذي لم يعد ذلك المتلقي السلبي بل حيوي نشط يشارك في تأويل الرسائل ويعطيها مضامينها.

إن الاهتمام بمرجعية القارئ وهي المرحلة الأخيرة شهدت قبلها الدراسات مرحلة متوسطة ما بين النص-القارئ، القارئ-النص، صحيح أن الاهتمام بالقارئ عملية مهمة وطفرة علمية ومع ذلك بقي هذا القارئ متأصلا في النص المقروء لمدة طويلة، ولم يستطع التخلص من البنيات النصية تخلصا تاما، طبعاً لأن النص هو موضوع الدراسة زيادة على ذلك سيطرة الفكر الوصفي وترجع إبستمولوجية خاصة به لمدة طويلة من الزمن، فهي مرحلة انتقالية مطولة تستدعي التوقف وتمثلت خاصة في تأسيس نوع خاص من القراء، أولئك القراء المفترضين « Les virtuels » المجردين الذين بقوا مدة مجرد مفاهيم تجريدية ومروا بمراحل مختلفة ولبسوا أثواباً متنوعة واتخذوا أشكالاً وحملوا أسماء غير اعتباطية في غالب الأحيان منها:

1- قارئ ميخائيل ربقاتير:

لقد اهتم الأمريكي "ميخائيل ربقاتير" بالقارئ وهو يؤسس لأسلوبية علمية موضوعية تخلصاً من الذاتية، وعالج مفهومه هذا داخل فكر سلوكي محض، ذلك أن الدراسات الأمريكية حينها كان تشهد تطوراً علمياً كبيراً فيما يخص السلوكية النفسية، فخلال الخمسينات أدرج العنصر (الثالث الكائن) (L'être) على الثنائية السلوكية التي

آمنت فترة طويلة بتنائية مثير ← استجابة، أصبحت بعدها ثلاثية العناصر: مثير ← كائن ← استجابة رغم عدم الاكتراث بهذا الكائن الذي يمكن أن يكون حيوانا أو إنسانا، فهو الذي يمر عبره المثير، لقد كانت "سكينر" Skinner تأثيرات كبيرة على الباحثين اللغويين فجاء "م. ريفاتير" بقارئ "كائن" تمر عبره المثيرات الأسلوبية و دوره محدود متضمن لاستجاباته لتلك المثيرات النصية سواء بالسلب أو الإيجاب .

1-1- القارئ المخبر l'informateur

إن القارئ "ريفاتير" قارئ مخبر عن وجود أحداث أسلوبية في النص، وقد جاء بهذا المفهوم داخل فكر لساني وصفي سنكروني محض، فتبني اللسانيات الوصفية تبنيًا تامًا لذا كان قارئه مجرد مخبر وقد يكون هو نفسه المحلل الأسلوبي أو تلك المجموعة من المخبرين، انه مجموعة مخبرين موظفين مستعملين لأجل التعرف على سلسلة أسلوبية تحتويها تراكيب النص فهو مجموع القراءات أي الاستجابات وليس متوسطها¹، وما تلك المثيرات إلا أحداث أسلوبية موجودة في النص، فالذي يهم الباحث الأسلوبي ليست الاستجابات وإنما المثيرات أي التراكيب النصية حيث يطلب من القارئ المخبر تسطير كل ما يشد انتباهه ويبطئ قراءته ويمكن تجديد هذا "القارئ" أثناء كل جيل من القراء. إنه مجرد مخبر يتأكد من خلاله على وجود الأحداث الأسلوبية فتكفي دهشة وردود أفعال المخبر قصد التأكد من وجود الحدث الأسلوبي، بذلك يكون "ريفاتير" قد فتح الباب على الذاتية المحضة لأجل تأسيس أسلوبية علمية، فما الذي يجعل المخبر يتأثر بهذا الحدث دون غيره ؟ وقد يتأثر مخبر آخر بحدث آخر يختلف عن الأول كل الاختلاف، وما هو هذا الحدث الأسلوبي المسبب للتأثير والاستجابة؟ الحدث الأسلوبي هو ما خارج عن المعيار "La norme" وما هو المعيار؟ من الصعوبة تأسيس معيار ثابت صالح لكل زمان لرصد ردود أفعال كل المخبرين، يدخل بعد ذلك "ريفاتير" معيار "السياق" "Contexe" كي يكمل النقص الذي يعانيه المخبر وينتقل بذلك إلى مفهوم آخر من القراء وهو مفهوم "القارئ الأعلى".

1-2- القارئ الأعلى:

أسس "ريفاتير" هذا القارئ المفترض التجريدي وهو يحاول إيجاد علم للأسلوب داخل صرامة علم لساني-وصفي-بنوي، لقد قال بهذا بعد ما جعله وسطا بين القارئ المتوسط "Le lecteur moye" والقارئ المتفوق "Surlecteur"، فالأول سطحي والمتفوق يخرج بالنص إلى معارفه وثقافته الواسعة فاختار الوسط بينهما وهو "القارئ الأعلى".

إن القارئ الأعلى قارئ استكشافي داخل عالم تراكيب ونسيج نصي بنوي لثنائيات متضادة متضمنة في النص، يتوقف هذا القارئ كلما يجد غير المنتظر في أساليب النص (التراكيب) التي تجبره على الانتباه والتوقف وكلما كانت الرسالة مكثفة كانت سببا في التوقف، فخلال هذه المرحلة الاستكشافية يجمع القارئ الأحداث التي يجب أن تحلل فيما بعد من طرف الدارس الأسلوبي (الأسلوبي الباحث الذي يحاول التنظير لعلم موضوعي للأسلوبية) وغالبا ما تشد تلك التراكيب الإدراك والانتباه أثناء التفكير، فمهمته إذن رصد الأحداث الأسلوبية التي يجب أن تحلل فيما بعد وهي نفسها المتضمنة في النص لذي يجذب قارئه بواسطتها، وكلما كانت دهشة القارئ الأعلى كبيرة كلما حكم على ذلك النص بالثراء الأسلوبي، لأن الثنائيات المتعارضة المحتواة في النص هي التي تحول إلى مصطلحات قيمة.

إن أحكام القيمة التي يصدرها ذلك القارئ الأعلى لها مسبباتها في النص فلا وجود لأثر دون المثير الضروري لقيام أسلوبية (سلوكية) خاصة بذلك النص فلا دخان دون نار حسب تعبير "ريفاتير".

إن أحكام القيمة هذه قد تكون حكما على أسلوب رديء، الرديء كذلك يمكن أن يكون موضع دهشة، فالملاحظ غالبا ما يكون انحرافا عن المعيار، المعيار هو تلك الجملة الخارجة عن المؤلف من التراكيب التي تكون وحدة، بذلك يبقى "ريفاتير" داخل إطار اللسانيات الوصفية، لكن رغم تلك العلمية المتبناة هل استطاع "ريفاتير" التخلص كليا من معارفه السابقة ؟ وهل يمكنه التخلص من كل النصوص التي قرأها سابقا،و التي سمع عنها والتي كتبها والتي كانت سببا في تكوين رصيده الذوقي؟.

لقد أهمل "ريفاتير" الجانب التاريخي- الإنساني- الاجتماعي في قارئه وجعل منه مجرد ردود أفعال لمثيرات (كائن وققط) ولما خلّص قارئه من كلّ خلفية يكون قد خلّص نصه كذلك من كل مرجعية، فنصه هو تلك الجملة المطولة المركبة والممتدة التي يمكن اعتماد المنهج التركيبي لتحليلها، على ذلك يبقى "ريفاتير" تركيبياً رغم انتقاله إلى القارئ، هذا القارئ اللامحدود من القراء المتلقين المتأثرين، غير أن محاولات "ريفاتير" هذه يلاحظ عليها تذبذبه ما بين البنيوية وجذب قارئه إلى النص وذوق القارئ الذي يمكن أن يتدخل أثناء الاستجابة للمثيرات.

فرغم العملية التي تنبها "ريفاتير" صعب عليه تأسيس أسلوبية علمية دقيقة بسبب اختلاف الأساليب الممكنة والمحتملة، فالأسلوب كلام فردي يصعب ضبطه وخضوعه للدراسات العلمية فهو غير اللغة، ذلك النظام الكلي الصالح للمناهج العلمية الوصفية خاصة إذا كان قارئ عدد لا محدود من القراء مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالأساليب متنوعة في النصوص مثل تنوع الكلام الفردي والوصول إلى أسلوبية علمية هدف صعب المنال والتحقيق.

إن كان محلل "ريفاتير" يعتمد الدهشة وشد الانتباه وتوقف القراءة عند وجود اللامنتظر لأجل رصد الأساليب وإثبات وجودها فإن الأساليب الرديئة هي كذلك أساليب خارجة عن المعيار ولكن هذا لا يعني أبداً رصدها كأساليب أدبية يمكن تحليلها.

لقد اهتم "ريفاتير" في محاولاته بتحليل كثير من الأساليب الأدبية كقصيدة "Beaudlaire" "بودلير" "القطط" فتحدث خلالها عن الرمز مع أن تحليل الرمز ومعالجته يستدعي بالضرورة تجاوز التحليل التركيبي والانتقال إلى العملية التفسيرية وربما هذا ناتج عن احساس "ريفاتير" بضيق التحليل البنيوي التركيبي لأجل دراسة القوائد الشعرية ذات الأبعاد الرمزية.

إن وحدة الدراسة الأسلوبية هو الحدث الأسلوبي، لكن هل هذا موجود فعلاً في النص أم في ذهن القارئ ؟ أم فيهما معا ؟ فإن عرض النص على مجموعة كبيرة من المتلقين أو القراء لماذا يتأثر البعض بحدث معين ولا يتأثر آخرون، وكيف يمكن لبعض الأحداث أن تبقى على تأثيرها بينما تندثر أحداث أسلوبية أخرى وتضمحل عبر الزمن ؟

بعض الأحداث تبقى تحافظ على تأثيرها رغم تغير الإطار الزمني وتغيير القارئ الأعلى أي مجموع القراء. إن كانت الأحداث الأسلوبية متضمنة في النص فلا بد لها أن تتسم بسمية الثبوت والخلود لأن النص "ثابت" وما "الأسلوبي" إلا تلك الثنائيات المتضادة التي يحتويها النص، تلاحظ عند "ريفاتير" هو تلك السلسلة اللغوية، الخارجة عن المعيار ولكن عند الاستمرار في قراءة محاولاته نلاحظ صعوبة تحديد المعيار، المعيار هو المؤلف، المعيار هو المتعارف عليه في اللغة لكي يكمل "ريفاتير" النقص الذي شعر به يأتي بالسياق، فما هو أسلوبي هنا ليس أسلوبيا هناك وهذا ما يفتح الباب للتغير والتبدل وكلما كثر التنوع صعب الضبط والتحكم.

إن ردود أفعال "القارئ الأعلى" رغم قيامها على العلمية تبقى تخضع كثيرا لأذواق القراء، الأذواق تختلف وتفتح بذلك بحوثه على الذاتية التي حاول التخلص منها. فهل يمكن ضمان عدم تدخل أحكام مسبقة عند تقديم النص للقارئ الأعلى؟ وكيف يتم تحويل أحكام القيمة الذاتية والشخصية والفردية إلى وسيلة موضوعية، كيف يتم تحويل أحكام القيمة إلى أحكام وجود؟ فهذه الأحكام مجرد مؤشرات لا أكثر ولا أقل.

وما يلاحظ كذلك على محاولات "ريفاتير" التذبذب بين تسمية قارئه بالقارئ المخبر والقارئ الأعلى ومرة أخرى يمكن أن يقوم المحلل الأسلوبي نفسه مقامها، فإلى أي حد يكون هذا المحلل الأسلوبي ذاتيا في الاستجابة وعلميا أثناء مرحلة التحليل، زيادة على ذلك عدم وضوح الفرق الدقيق بين هذين المفهومين، فهذا القارئ مرة مندهشا، مرة متفوقا، مرة متدوقا، ومرة محلا، ومرة مخبرا وراصدا للأحداث الأسلوبية فقط ليس إلا. نستخلص من كل ما تقدم أن قارئ "ريفاتير" هو مجموعة المخبرين لأجل إثبات وجود أحداث أسلوبية في سلسلة لغوية، انه ليس متوسط القراء²، وإنما مجموعهم وبالضبط مجموع ردود أفعال وليس متوسطها.

2- القارئ الضمني Le lecteur implicite

تعد نظرية الأثر التي تزعمها "أيزر" في كتابه المعنون بـ "L'acte de lecture" "théorie de l'effet esthétique" "فعل القراءة ونظرية الأثر الجمالي" الشق المكمل لأفكار "يوس" لأجل تأسيس مدرسة ألمانية متكاملة المفاهيم، لقد أخرج "أيزر" كتابه سنة 1976 ولم يترجم إلى اللغة الفرنسية إلا سنة 1985. مثلما يلاحظ من خلال التسمية في

حد ذاتها "نظرية الأثر" فإن فكر "أيزر" ليس بعيدا عن فكر "ريفاتير" إذ يعتمد الأثر "L'effet" حتى وإن كان قد وجه نظريته أكثر إلى القارئ وبدا كتابه السابق الذكر متضمنا لمفاهيم أكثر انسجاما وأكثر تناسبا حيث بدأ متجاوزا لفكر "ريفاتير" وفكر "يوس" القطب الثاني داخل المدرسة الألمانية أو ما يسمى بمدرسة "كانستانس" "Constance"، ففي رأيه يجب أن نتجاوز التلقي "La reception" لأنه يتضمن بعض السلبية إلى الأثر وهذا الأثر لا يتعلق بالمعنى في حد ذاته وإنما بالأثر الذي يتركه معنى النص على القارئ، فالأثر هو معيار الجمالية، انه لا يتلقى وإنما يحدث حدثا ما في القارئ مع أنه مستغرق في النص بينما التلقي يكمن في الأحكام التاريخية للقارئ يبدو بذلك "أيزر" أقرب إلى الأمريكي "ريفاتير" منه إلى "يوس" زميله في الفكر الألماني، يقول "أيزر" عن تجذر قارئه في النص: "وما دعوته بالقارئ الضمني ليس شخصا خياليا مدرجا داخل النص، لكنه دور مكتوب في كل نص ويستطيع كل قارئ أن يتحملة بصورة انتقائية وجزئية وشرطية. ولكن هذه الشرطية ذات أهمية قصوى لتلقي العمل ولذلك فإن دور القارئ الضمني يجب أن يكون نقطة الارتكاز لبنية النص التي تستدعي استجابة"³، فالاستجابة لبنيات النص ضرورة وشرطا لقيام "القارئ الضمني" بتلك المهمة التي يمكن أن يقوم بها أي قارئ مفترض وممكن، يتقبل حسب "أيزر" ضغط القراءة ذلك الضغط الذي يولد بعض التشردم والتفرقة بين "الأنا" كقارئ و"لأنا" الآخر المختلف تماما عن الأول، الذي ينشغل بالحياة اليومية يدفع فاتورته، ويصلح أنابيب المياه، ويقل تعقله من حين لآخر...4 كما يشترط في هذا القارئ توافق معتقداته مع معتقدات الكاتب "أنني فقط عندما أقرأ، أصبح تلك الذات التي يجب أن تنطبق معتقداتها مع معتقدات المؤلف، بغض النظر عن معتقداتي وممارساتي، يجب علي أن أضع ذهني وقلبي للكاتب إن أردت الاستمتاع الكامل به، وباختصار يخلق المؤلف صورة لنفسه وصورة أخرى لقارئه انه يصنع قارئه كما يصنع ذاته الثانية، والقراءة الأكثر نجاحا هي تلك القراءة التي يمكن فيها للذاتين المبدعتين أي المؤلف والقارئ أن يتوصلا إلى الاتفاق التام"⁵.

إن "أيزر" نفسه يتحدث عن صعوبة تحقق مثل هذه الأطروحة على أرض الواقع وحتى استحالتها. يبقى قارئ "أيزر" خاضعا للنص وللكاتب لأنه قارئ من صنع الكاتب، فهو

صورة ينسجها المؤلف، مشاركته محدودة يجب أن تبقى داخل ما ينسجه النص وما تظهره بنياته.

لقد جاء "أيزر" بمصطلح "القارئ الضمني" وهو يتجاوز "القارئ الأعلى" عند "ريفاتير" و"القارئ المخبر" عند "فيشر" و"القارئ المقصود" عند "وولف" فهو قارئ يعتمد فكرة إعادة بناء النص، يقول "أيزر" في تعريفه للقارئ الضمني أنه: "إن مفهوم القارئ الضمني نموذج عقلي يسمح لنا أن نفسر كيف أن النص الخيالي ينتج أثرا وبأخذ معن⁶. إذ تزوج داخل هذا النص بنيتان بنية النص وبنية الفعل فما التمثلات الموجودة في ذهن القارئ إلا ترجمة لبنيات النص حتى وإن تلونت محتوياتها بتجربة كل قارئ، ففي هذه الحالة قارئ "أيزر" يشبه إلى حد بعيد قارئ "بول ريكور" الذي تنحصر مهمته في إعادة تشكل النص "Reconfiguration" بعد أن كان نصا "متشكلا" "Configurer". تكون بذلك "القراءة" سلسلة من الأفعال التمثلية ويتم التخلي عن هذه التمثلات من حين لآخر كلما لم يتمكن القارئ من إدماجها مع آفاق النص الأخرى لأنها يجب أن تنسجم في كل مرة، فالقارئ يمكنه أن يعدل من وجهة نظره تبعا للمتتالية النصية حتى يصل إلى المعنى العام النص الذي يشترط انسجام وجهات النظر، "على هذا يتموضع القارئ داخل النص أو داخل عالم النص"⁷.

للنص وجهان حسب "أيزر" يجب تحقيقهما أثناء فعل القراءة الأول فني "Artistique" والثاني جمالي "esthétique" الأول متجذر في النص والثاني يمثل فترة تجسيد النص مرة ثانية ولحظة الأثر أو الوقع تتم عند التقاء النص بالقارئ وينتج عن ذلك تأثير نصي معين، ذلك النص الذي يحتوي على فراغات وبياضات يكلف القارئ بملئها عن طريق الأثر الذي يتركه معنى النص على القارئ، يكون بذلك "أيزر" قد جعل قارئه مشاركا إلى حد ما في العملية الإبداعية حتى وإن بقي مرتبطا بالنص، فهو متأصل في النص وعبارة عن تركيب وأفق لا يمكن مطابقته أبدا مع أي قارئ حقيقي على أرض الواقع، القارئ الضمني مائل بالضرورة في تلك الفراغات والبياضات، هو مفهوم تؤسسه البنية النصية وتجذبه نحوها، يقول "أيزر": "القارئ الضمني كمفهوم، له جذور متأصلة في النص، إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي، ويصح هذا حتى عندما

تبدو النصوص كأنها تعتمد تجاهل متلقيها الممكن، وأنها تقصيه بفعالية وهكذا يعني مفهوم

القارئ الضمني شبكة من البنيات التي تستدعي تجاوبا يلزم القارئ فهم النص".8.

لقد استبدل "أيزر" مفهوم التلقي بمفهوم التجاوب أو التفاعل "interaction" ذلك أن مفهوم التلقي يتضمن بعض السلبية، جعل بذلك "أيزر" قارئه يشارك أكثر في العملية الفنية وترك له حيزا مع أنه قيد من حريته فتلك الفراغات لا تملأ بطريقة اعتباطية وإنما تملأ بما يناسب النسيج النصي لأن الكاتب كان قد أسس نوعا خاصا من القراء، مثلما أسس ونسج نصه فهو عبارة عن قارئ لا يمكن أبدا مطابقتها مع أي قارئ حقيقي في الواقع وهو كذلك ليس تجريدا للقارئ الواقعي حسب تعبير "أيزر".

أخيرا يمكن القول أن "أيزر" تجاوز "يوس"، يتجاوزه لمفهوم التلقي وتجاوز "ريفاتير" لما أعطى لقارئه وجهة نظر وترك له حيزا في النص ومع ذلك لم يتخلص كليا سواء من النص/البنية أو من السلوكية تخلصا تاما، فقد تكلم هو كذلك عن الأثر أولا ثم عن "La stimulation"، "Les signes stimulants"، "الإثارة"، "العلامات المثيرة"، هي مفاهيم سلوكية محضة، كما تحدث عن غير المنتظر "L'imprévisibilité" وهو المصطلح الذي وظفه "ريفاتير" قبله.

3- القارئ النموذجي عند "أيكو" Le lecteur modèle :

3-1- إن قارئ "أيكو" مثلما تدل عليه التسمية "نموذجيا" لذا يمكن التنبؤ بصعوبة العثور عليه وتحقيقه على أرض الواقع لأنه "النموذج".

لقد اعتمد "أيكو" السميولوجي الإيطالي الشهير في مختلف مؤلفاته على فلسفة "بيرس" ويتجلى ذلك كثيرا في كتابه "Le signe histoire et analyse d'un concept"، وخاصة فيما يخص المفسر "L'interprétant" أو المؤول وهي تلك الصورة التي ترتسم في ذهن المرسل إليه لما يرسل إليه من دليل ما، والذي يعتبر هو نفسه مفسرا لدليل آخر وهكذا إلى نهاية السلسلة التفسيرية.

لقد اعتمد "أيكو" كثيرا عند تأسيس مفهوم قارئه النموذجي على "بيرس" وفكرة لا تنتهي المفسرات، كما اعتمد مفاهيم النظرية التواصلية التي وظف الكثير من مفاهيمها مثل: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، القانون الذي لا يكون متطابقا أبدا بين الكاتب

والقارئ فلا وجود لتواصل لسانی محض "لأن القانون اللسانی ليس كافياً لفهم الرسالة اللسانية"⁹. لقد انتقد "أيكو" الذين اعتمدوا العملية التواصلية لأنه سميولوجي بالأساس فجعل من العملية التواصلية نشاطاً تتكامل فيه مجموعة من العلامات والعوامل اللغوية وغير اللغوية.

لقد اهتم "أيكو" بالنص السردي المكتوب وحلل الروايات والقصص القصيرة خاصة في كتابه "Lector in fabula" وقد افترض لنصه السردی المكتوب قارئاً نموذجياً، فهو الآخر مثل "أيزر" نصه غير كامل بتاتا وفي كثير من الأحيان معقد ويعود هذا التعقيد إلى كثير من البنى الغائبة "Les nom-dits" الغير الظاهرة في البنى السطحية للنص، ذلك أن كل نص يفترض المشاركة التفسيرية لقارئه النموذجي، فهو رغم امتلاكه لمعارف وموسوعات لغوية وغير لغوية ما زال متأصلاً في النص ومصنوعاً ومفترضاً من طرف الكاتب، قارئ "أيكو" النموذجي لديه ثروة لغوية إذ لا يفتح القاموس في كل مرة باحثاً عن معاني الكلمات بل يرجع إلى قاموسه¹⁰ الخاص وحتى إلى موسوعته الفردية زيادة على معارفه اللغوية يمتلك كذلك معارف نحوية ومخزونا تركيبياً كي يتعرف على وظيفة الكلمات داخل سياق الجملة وبذلك يحين القارئ النموذجي النص في كل مرة ويطلق "أيكو" على هذه المعارف اسم "الموسوعة القرائية" وهي مجموعة ضمنية متضمنة لكفاءة أسلوبية-بلاغية توارثها عن أجيال سابقة وعن قراءات ماضية.

3-2- القارئ النموذجي إستراتيجية نصية.

إن كاتب "أيكو" يؤسس قارئه أي يؤسس إستراتيجية قرائية معينة لنصه كأن يكتب لنخبة، لطبقة اجتماعية معينة، لجمهور عام، مع أن قارئه لا يباشر النص وهو خاوي الذهن بل يباشره وهو يحمل إستراتيجية قرائية يواجه بها "مسكوت النص" وغموضه. تكون بذلك الإستراتيجية القرائية من وضع الكاتب ومتضمنة في النص كصنف موسوعة الكتابة، أسلوب النص، فالنص يواجه القراءة ويكون لنفسه عالم تفسيراته المشروعة.

للقارئ إذن إستراتيجية نصية وعليه تكون المشاركة التفسيرية بين إستراتيجيتين خطابيتين، وليس بين فردين¹¹، فمن خلال استعمال "أيكو" لـ "التفسير" يلاحظ بعض التجاوز للاستجابة عند "ريفاتير" و"لأثر" عند "أيزر".

فحسب "أيكو" ينتبأ كل من الكاتب والقارئ بحركات بعضهما البعض مثل الإستراتيجية العسكرية فكلاهما يتصور نموذجا معيناً لخصمه ولكن في حالة القراءة الأدبية الكاتب يريد أن يربح الخصم، فالكاتب يضع قارئه ويتنبأ به عندما يختار لغة الكتابة، صنف الأسلوب الخاص والمميز، فالنص موجه إلى قارئ معين من خلال علاماته ويكون عالم تفسيراته الممكنة.

القارئ النموذجي اذن عبارة عن مجموعة من الظروف تتضافر لإنجاح العملية القرائية، وهي بنيات متضمنة في النص تسمح للقارئ بتحيينه ومثلما يتحدث "أيكو" عن القارئ النموذجي، يتحدث كذلك عن الكاتب النموذجي الذي تتضمنه علامات النص "Les traces" أي العلامات النصية لأنه سميولوجي بالدرجة الأولى، فكل من الكاتب والقارئ يتعرف كلاهما عن الآخر، فالكاتب يحضر لقارئه وينتقيه وبينيه أثناء بناء نصه، كذلك القارئ يتعرف على كاتبه من خلال نصه وعلاماته النصية، يتعرف عليه من خلال مسكواته النصية، فالقارئ النموذجي يقوم بنشاط سيميولوجي متعدد الجوانب موظفا لكفاءات لغوية وغير لغوية مثل الإيديولوجية وكفاءات أخرى ضمنية تسمح للقارئ النموذجي باستخراج ما لم يقله النص صراحة.

الخاتمة:

نخلص في الأخير إلى أن التوجيهات والدراسات السابقة تشترك في اتجاه واحد هو تأسيس هذا القارئ "المجرد" "Virtuel" المتضمن في بنية النص بالدرجة الأولى، ففعل القراءة متأصل في النص رغم مشاركة القارئ بأشكال مختلفة وبنسب متفاوتة، فهو "مخبر" محدود الوظيفة مكبل الحرية، وهو الذي يحين النص ويأتيه بجانبه الثاني الجمالي وهو الذي يملأ الفراغات المحتواة في النص وهو "النموذجي" الذي يواجه النص بواسطة استراتيجية قرائية ضمنية، فرغم الطفرة التي شاهدها عند "أيكو" أثناء تجاوزه السلوكية بكثير غير أنه بقي داخل نصه بحكم انتمائه السيميولوجي واعتماد العلامات النصية قبل كل شيء، لذلك تبقى هذه الاتجاهات تشترك في تأسيس قارئ/نص سواء أسسه النص أو أسسه الكاتب من خلال نصه وتتنبأ به، فهو إذن متأصل في النص رغم مشاركته من حين لآخر

في العملية التفسيرية عند "أيزر" وعند "أيكو" خاصة وإخراج النص إخراجاً جديداً، "وإعادة تشكيله" حسب "بول ريكور".

تبقى أهمية مثل هذه البحوث رغم تأسيسها لقراء تجريبيين تفيد في وضع إستراتيجيات فرائية، (إن حسن استثمارها)، لأجل الرفع من المستوى الثقافي والمعرفي للمتعلمين وغير المتعلمين، لأمة تحتاج إلى سياسة قرائية أكثر من غيرها.

الهوامش:

¹ - Michaël Riffaterre : Essais de stylistique structurale, traduction de Daniel Delas, Flammarion, éditeur, Paris, 1972, P46.

² - M. Riffaterre, P46

³ - "آفاق نقد استجابة القارئ" - أيزر - كلية الفلسفة - جامعة كانستانس بألمانيا، الترجمة لاحمد بوحسن ومراجعة الدكتور محمد مفتاح، نشر البحث في كتاب: قضايا "التلقي والتأويل"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1970، ص 212.

⁴ - لمزيد من التوسع أنظر : Iser, P 73.

⁵ - "أيزر" : فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ترجمة وتقديم د. حميد لحميداني، والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، فاس، 1994، ص 31.

⁶ - Iser, P 75.

⁷ - Ibid, P 72.

⁸ - أيزر - فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ص 31.

⁹ - Umberto Eco: Lector in Fabula, Grasset, 1985 P 65.

¹⁰ - لمزيد من التوسع أنظر المرجع المذكور، ص 61

¹¹ - لمزيد من التوسع أنظر "أيكو" المرجع السابق الذكر، ص 78.